



لبنان في السياسة الفرنسية (٢) الأختلاف الفرنسي والمعزوف عنه

نتابع في هذه الحلقة الثانية الاخيرة دراسة الزميل سمير قصير حول تاريخ السياسة الفرنسية في لبنان.

لا شك ان ديغول، المتميز بوعيه الحاد للتاريخ الفرنسي ولتراث السياسة الفرنسية، كان يتأثر بالمفهوم التقليدي للشائع للصدّاقة بين فرنسا ولبنان، بما يترتب عليه من مسؤولية للأولى بإزاء الثاني، لجهة ضمان ديمومته وحدوده. الا انه لم يكن ينظر الى هذه المسؤولية في معزل عن سياسته العربية. بل على العكس، كانت تلك السياسة تشكل اساسا امتن لها. وفي اي حال، لم يكن تقليد الصداقة بين البلدين، او بتعبير أدق، تقليد الصداقة بين فرنسا ومسيحيي لبنان، البعد التاريخي الوحيد الذي استعاده ديغول. بل كانت سياسته الجديدة تتأسس على نظرة تاريخية رحبة تغرف من تراث السياسة الفرنسية، فتستعيد في آن واحد اشكالية "التحالف بين زهرة الزنبق والهلال"، وهو التعبير الذي اطلق على العلاقة بين فرنسا والاول وسليمان القانوني، واشكالية السياسة "الاسلامية" التي اتبعت في القرن التاسع عشر، هذا فضلا عن مفهوم حماية مسيحيي الشرق. ويمكن الرجوع هنا الى نقله الرئيس صائب سلام عن خليفة ديغول، الرئيس جورج بومبيدو. يروي سلام انه عندما زار بومبيدو عام ١٩٧٢، نقل اليه شكوى المسلمين اللبنانيين القديمة من الافضلية المعطاة من فرنسا الى المسيحيين. فما كان من بومبيدو الا ان اجاب: "كم اود لو استطعت ان اقنعك بان فرنسا قوة اسلامية اكثر منها مسيحية".

الحرب

لم يغب التحول الحاصل في السياسة الفرنسية عن اللبنانيين. وكان، على العكس، في اساس المقولة الشعبية التي شاعت بين المسيحيين في بداية الحرب اللبنانية والتي تتهم فرنسا ببيع لبنان، اي لبنان المسيحي في مقابل النفط. وكانت هذه المقولة تكتسب صدقية ظاهرة من الانفتاح الجديد بين فرنسا ودول الخليج، بعد حرب اكتوبر وزيادة اسعار النفط. الا ان رد الموقف الحيادي الفرنسي في لبنان الى اسباب نفعية خطأ فادح لاسيما ان دول الخليج كانت وقتئذ وراء الفريق المسيحي. مرد الحياد هو ببساطة ان فرنسا، وان كانت تفرد منزلة خاصة للبنان ولمسيحييه، فهي تضعه في اطار سياسي اكبر كان سيختل بالضرورة لو انها انحازت الى فريق ضد آخر، مهددا تاليا "الاختلاف الفرنسي". هذا بالاضافة الى ان التوجه المسيحي المتطرف في لبنان كان على نقيض توجهات الرأي العام الفرنسي في تلك الحقبة.

في المقابل، فإن وضعية فرنسا الجديدة كصديقة للعرب هي التي اتاحت لها المجال لمحاولة التوسط بين الافرقاء اللبنانيين من جهة، والطرف المسيحي المقاتل وكل من الفلسطينيين والسوريين من جهة اخرى. كانت تلك مهمة موريس كوف دي مورفيل وجورج غورس في تشرين الثاني ١٩٧٥ بتكليف من الرئيس جيسكار ديستان. وهي، وان لم تتوصل الى نجاح باهر، فإنها على الاقل ساعدت في التحضير لزيارة بيار الجميل الشهيرة الى دمشق في كانون الاول ١٩٧٥.



كيف انتهت اذاً السياسة الفرنسية الى تدخل عسكري في لبنان؟

بدأ التحول خجولا في عهد جيسكار ديستان، على رغم التزام هذا الاخير سياسة سلفيه ومحاولاته الناجحة لتدعيمها اوروبيا.

محطات هذا التحول هي الآتية:

- ١ - اقتراح ارسال قوات فرنسية بعد اتساع القتال في ايار ١٩٧٦
- ٢ - المشاركة في قوة الامم المتحدة في جنوب لبنان، التي تحولت عبئا على هذه القوة بدل ان تكون عنصر دعم لها كما كان يرجو الفرنسيون واللبنانيون.
- ٣ - زيارة الرئيس الياس سركيس الى باريس، في تشرين الثاني ١٩٧٨، التي اخذت طابعا مناوئا بعض الشيء لسوريا، على رغم الموقف الفرنسي السابق خلال معركة الاشرفية قبل شهرين.
- ٤ - الربط بين تطوير العلاقات الثنائية الفرنسية - الفلسطينية والموقف الفلسطيني في لبنان، وهو احد العوامل التي حالت دون دعوة ياسر عرفات الى زيارة باريس في عهد جيسكار ديستان.
- ٥ - التحرك اللافت للسفير لويس دولامار خلال معركة زحلة، مع ملاحظة ان هذا التحرك تزامن مع الحملة الانتخابية الرئاسية في فرنسا.

كيف تفسر هذا التحول؟

لا يمكن رده الى اعتبارات شديدة التحديد، كالعداء لسوريا، وهو طرح غير صحيح، او النزعة الاطلسية عند جيسكار ديستان، وهي نزعة لم تمنعه من معارضة الولايات المتحدة في رفضه منطق الحل المنفرد. في رأينا ان التفسير الصحيح لا يخلو من التعقيد، وهو يقوم على اعتبار سياسة فرنسا العربية انعكاسا لحال العالم العربي. فعندما تكون مصر محور العالم العربي، تصبح حكما المحاور الرئيسي لفرنسا. اما عندما يفتقد العرب القطب الذي ينظم اصطفاقهم، سلبا او ايجابا، فتشعر فرنسا، وبفعل تشعب علاقاتها الثنائية مع الاطراف العرب، انها مدعوة الى الدخول في اللعبة من دون وسيط، ومن ثم الى تحولها طرفا في الصراعات العربية - العربية كما حصل في عهد ميتران الذي كرس التحول في السياسة الفرنسية حيال العالم العربي عموما ولبنان خصوصا.

يطول البحث ويتشعب اذا ما شننا التأريخ لسياسة ميتران في لبنان. لذلك سأكتفي باشارات سريعة. واهمها على الأرجح ان التحول الذي احدثه ميتران لم ينبع من عقيدة ثابتة ولا من نظرية متكاملة لوضع لبنان. بل كان هذا التحول ناتجا من تضافر عوامل عدة. بالاضافة الى ما اسلفنا عن نزعة التدخل الناجمة عن تفكك الوضع العربي، نجد:

- ١ - توجه ميتران الاطلسي الحاد او بتعبير ادق نزعته المزمنة الى مجارة الولايات المتحدة، في الوقت الذي كانت الموجة الريغانية تدفع للعودة الى سياسة القوة في العلاقات الدولية.



- ٢ - انحيازه المبدئي الى جانب اسرائيل.
 - ٣ - رغبة ميتران في الابقاء على السياسة العربية في جانبها الخليجي.
 - ٤ - وقوف فرنسا، على رغم تحفظات ميتران، الى جانب العراق في حربه مع ايران.
 - ٥ - تحليل قام به وزير الخارجية كلود شيسون في اوائل العهد يقضي باعتبار سوريا على طرف نقبيض مع فرنسا في الساحتين اللبنانية والفلسطينية في آن معا.
 - ٦ - الافضلية المعطاة الى ما يسمى "الديبلوماسية الموازية" على المنهج التقليدي المتبع من طرف وزارة الخارجية، في عودة لافتة الى ممارسة الجمهورية الرابعة.
 - ٧ - تبدل الاحوال الفكرية في فرنسا، والغرب عموما، مع صعود ايديولوجيا مناهضة للعالم الثالث وذات نزعات صليبية.
- في طبيعة الحال، لم تجتمع دوما تلك الاعتبارات. لذلك، لم تكن السياسة المتبعة في لبنان ثابتة. وقد مرت هذه السياسة في ثلاث مراحل:
- ١ - مرحلة ١٩٨١ - ١٩٨٣ التي بدأت بمباركة فرنسية لمشروع الاجتياح الاسرائيلي ثم باعتراض على حجم الاجتياح. وكانت ابرز محطاتها التدخل العسكري الفرنسي الى جانب الولايات المتحدة، في فترة اولى، لحماية خروج المقاتلين الفلسطينيين، وفي فترة ثانية تلت مجزرة صبرا وشاتيلا، لحماية المدنيين، وهي مهمة ما لبثت ان تحولت مؤازرة للرئيس امين الجميل في فرض سلطته، ثم تورطا في الحرب الاهلية. كان معنى هذا التدخل، من وجهة النظر الفرنسية، ان فرنسا انجزت الى سياسة لم تكن توافق عليها بالضرورة، من دون ان تسمح لها مواكبة الولايات المتحدة، كما كان يرجو المسؤولون الفرنسيون، بالمحافظة على نفوذها في لبنان. لا بد من التذكير هنا بالمرارة التي استقبل بها اركان وزارة الخارجية الفرنسية، المعارضون اصلا لتوجه ميتران، كسر الاحتكار الفرنكوفوني لمنصب وزير الخارجية في لبنان، مع تعيين الدكتور ايلي سالم.
- لكن الادهى، ايضا من وجهة النظر الفرنسية، ان ميتران ما لبث ان تخلى عن هذا المنهج بعد عملية ٦ شباط ومؤتمر لوزان وفتح قنوات اتصال جديدة مع حركة امل والحزب التقدمي الاشتراكي. وبدا فشل السياسة الفرنسية في شكل ساطع عندما توجه الى دمشق، في تشرين الثاني ١٩٨٤، بعد سنتين من حرب غير معلنة بين البلدين. ويجدر التنويه هنا بان ميتران كان قد اعترف بدور سوريا المميز في المنطقة، اي بدورها المميز في لبنان، في رسالة وجهها الى الرئيس حافظ الاسد في ١٠ شباط ١٩٨٤.
- ٢ - المرحلة الثانية تمتد بين ١٩٨٤ و ١٩٨٨. وقد تميزت هذه المرحلة، التي تزامنت مع ضعفة الحكم في فرنسا، بعد هبوط شعبية ميتران وخلال تجربة المساكنة، تميزت بالتخلي عن ادعاء لعب دور مباشر في لبنان كما في مجال الصراع العربي - الاسرائيلي. وزادت من حدة التراجع البادي



على السياسة الفرنسية ازمة الرهائن والالتباسات العديدة التي نجمت عنها، ان في العلاقة مع ايران او في التعاطي مع الساحة اللبنانية، وخصوصا مع القوى الموالية لإيران او المتحالفة معها.

٣ - المرحلة الثالثة هي المرحلة العنوية، اذا جاز التعبير. وهي بدورها، لم تخل من الالتباسات الناتجة اساسا من عدم قدرة الحكم الفرنسي على حسم امره. فكان من جهة مدفوعا الى مؤازرة العماد عون، من دون ان يكون مرد هذا الاندفاع تبلور نظرية جديدة للوضع اللبناني. ولعل التفسير الاصح لهذه الظاهرة تفسير ميكانيكي قوامه ان ظهور ازمة حادة تسترعي اهتمام الرأي العام الفرنسي صار يثير بشكل شبه عفوي نزعة الحكم الفرنسي الى التدخل، بعد ان ارسى تراكب التجارب المماثلة نوعا من التقليد. وقد زاد من حدة هذه النزعة حصول الازمة في وقت كان ميتران قد استعاد هيئته بعد اعادة انتخابه، وتفرغ للشؤون الخارجية. كما ان قابلية الجمهور الفرنسي لمفهوم "واجب التدخل" الذي طرحه برنار كوشنير عضو الحكومة الفرنسية آنذاك كان من شأنه تشجيع الحكم على المضي قدما. اخيرا لا بد من الاشارة الى ان الطابع الحاد والتبسيطي لشعار العماد عون في حربه زاد من قابلية الرأي العام لمباركة خطوة الحكم ومن رغبة ميتران في استثارة رضى الرأي العام، لاسيما ان عون عرف بدوره كيف يوظف المعارضة اليمينية الفرنسية.

لكن الحكم الفرنسي كان، من جهة اخرى، عاجزا عن المضي بسياسته الى نهايتها المنطقية، وذلك بسبب جملة من الاعتبارات الاميركية والسعودية، ناهيك عن الاعتبارات الامنية، مع التنويه بان هذه الاعتبارات المعروفة، على الاقل بعد الطائف، لم تنته عن مجاراة العماد عون، ولا نهته عنها ملاءمة اتفاق الطائف مع المواقف الفرنسية الثابتة القائلة بضرورة تطوير النظام اللبناني. هكذا استمرت فرنسا عاما واكثر تمارس سياسة لا تستطيع ان تعبر عنها صراحة لانها لا تقدر على عقائنتها وفق معايير ديبلوماسية. ذلك ان مفهوم السيادة، على اهميته، لم يكن ليشكل وحده المقياس، منذ ان ادرك الفرنسيون في بداية الحرب، ان مقاربتة لا تستقيم اذا لم يؤخذ في الاعتبار الانشطار الاهلي الطائفي في لبنان.

قلنا بداية انه لا يمكن فهم السياسة الفرنسية حيال لبنان اذا لم ينظر الى وضعية فرنسا العالمية في اللحظة التي تنتهج فيها هذه السياسة، واذا لم تدرج في اطار سياستها الشاملة في محيط لبنان. ليس ادل على ذلك الا ما يحصل منذ عامين. ما نعينه هو انه لم تعد توجد سياسة فرنسية حيال لبنان لأن فرنسا تخلت، وبشبه اجماع قياداتها السياسية والحزبية، عن سياسة عربية متسقة. وما هذا التخلي بدوره الا عزوف عما سمي "الاختلاف الفرنسي"، تلك البدعة العبقريّة التي ادرك شارل ديغول كيف يوظفها من اجل تجاوز وضعية بلده كقوة متوسطة الحجم.

اما التحركات الفرنسية العديدة التي يمكن رصدها في الأونة الاخيرة بإزاء لبنان، لاسيما زيارة جاك شيراك الى بيروت، فإنها لا تشكل سياسة. وفي اعتقادنا انها تخضع الى حسابات براغماتية وشخصية ليس الا، وتفتقد بالتالي الثقل والمعنى اللذين كانت ستتميّز بهما لو انها اندرجت في اطار سياسة خارجية متسقة وفاعلة على الصعيد العالمي.

سمير قصير



Id-Reference	93-Pr-000088	
Media	(Support)	HC
Title		الحلقة الثانية والأخيرة لبنان في السياسة الفرنسية (٢) الإختلاف الفرنسي والعزوف عنه
Subtitle		الحرب
Section		
Language		عربي
Source		النهار
Page		
Date		١٩٩٣/٧/٢٤
Author		سمير قصير
Co-Author		
Keywords		
	Persons	شارل ديغول - موريس كوف.دي.مورفيل - جورج غورس - جيسكار ديستان - جاك شيراك
	Locations	لبنان - فرنسا
	Dates	١٩٧٢، تشرين الثاني ١٩٧٥، (١٩٨٣ - ١٩٨١) (١٩٨٨ - ١٩٨٤)
	Themes	لبنان - فرنسا - علاقة - سياسة - صداقة - قوة إسلامية - تدخل عسكري - حياد - تاريخ - إجتياح إسرائيل - شعبية - فرنسوا ميتران - سياسة - ميثال عون - رفيق الحريري - جاك شيراك - صداقة
Subject		القسم الثاني من المداخلة التي ألقاها سмир قصير حول الكيان اللبناني والتي يتابع فيها مسار العلاقة الفرنسية مستعرضاً تأثيرها بالسياسة العربية التي اعتمدها شارل ديغول ومشيراً الى حياد فرنسا في بداية الحرب اللبنانية الذي انتهى بتدخل عسكري بعد اتساع القتال ومتوقفاً عند سياسة ميتران في لبنان وأخيراً انتهى إلى عدم وجود سياسة فرنسية حيال لبنان خالياً رغم الصداقة التي أعاد تأسيسها رفيق الحريري.